(٦٨)

"انغماس"

نظر لأخيه وهو يحمل رابع مولود له بسعادة غامرة يكسوها الزهو والافتخار بكثرة ذريته وتنوعها بين ذكورٍ وإناث، فكانت تلك هى المرة الأولى له التى يسترعى انتباهه ذلك الأمل الذى يمنحه الأطفال لآبائهم وأمهاتهم فى كل مرة يعلنون فيها للجميع خروجهم للدنيا وبداية وجودهم فى العالم الأرضى.

فمع ميلاد طفلٍ جديد تشرق شمس أملٍ طويل المدى وممتد لأجلٍ بعيد يرجو أصحابه ألاَّ ينقطع عنهم. ومع هذا الأمل تتجدد الحياة وتستمر الرحلة ويتابع كلٌ كفاحه للبقاء قدر المستطاع. ومع الأيام ربما يضيق الحال، وتتزايد أعباء التكفل برعاية ذلك الأمل، ويصبح من العسير بذل مزيد من المجهود لاستكمال مسيرة نموه، فتخفت السعادة، ويذبل شباب الوالدين، وتُنهَك قواهم، فيتضاءل الحلم الذى كان كبيرًا، ويكتفى الجميع بأقل القليل فى كل شيء ما عدا أن يتكاثر نسلهم ليملأ الأرض حتى لو ضحوا فى سبيل ذلك بحياة أكثر رغدًا وأقل شقاءً.

لم توقظ لحظة ميلاد الطفل الرضيع حالة من الأمل فى الحياة لكل الموجودين بما فيهم عمه، الذى بلغ المشيب دون أن يتزوج أو تكون له ذرية، بل دفعت أيضًا ذلك العم فى كهولته تلك أن يفكر فى مآله ومآل كل مولود جديد بعد أن يكبر، ثم يشيب ويصبح فى حالة انتظار لنهاية حياته الحتمية، مثلما

تنتظر الأم الحامل لحظة خروج طفلها الوليد للحياة بفارغ الصبر. واستمرت معه تلك الأسئلة، وظل هو يفكر ويتساءل: "ماذا بعد كل ميلاد ونمو إلا المشيب والعجز.. وماذا بعد الحياة بكل ما فيها إلا الموت والقبر.. وماذا بعد الموت؟ ... وماذا يمكن أن يكون من أمل لما بعد الموت؟ .. وماذا لو لم يكن هناك أمل؟"

ظلت تلك الأسئلة تموج فى خاطر العم الذى ترك العنان لعقله لأول مرة ليتأمل كنه الحياة التى عاش فيها طويلاً، ويتدبر غايتها، ويعيد التفكير فى غايته هو منها، بعيدًا عن زهو السعادة، وعزّ الافتخار، والتعلق بطلب المزيد من كل متاعٍ زائلٍ فى الدنيا.